من أبلغ ما قيل فى تكريم مؤلف العباسة :

ذكريات ...

للأستاذ كامل كيلانى

كنا نسمر — أيها السادة — فى حلوان — ذات ليلة — مع الصديق الكريم « جمال الدين أباظة بك » رضى الله عنه ، فى دار شاعرنا « عزيز باشا » أعز الله به دولة الأدب ، قبيل نشوب هذه الحرب العالمية الطاحنة — لا أعاد الله مثلها ، على عالمنا الأرضى المنكوب .

ولم يكد يستقر بنا المقام حتى لمحنا أجزاء من كتاب الأغانى ، على مكتب شاعرنا الموهوب .

فالتفت إلى صديقى جمال بك ، وقلت له : أليس من العجيب أن الإنسان لا يكاد يفتح صفحة من صفحات هذه الكنوز الأدبية الخالدة ، إلا وقعت عينه على درة من عيون البيان العالى تملأ نفسه روعة وسحراً ! » .

قلت هذا — أيها السادة — وأنا قليل الثقة بتوفق إلى مفاجأته بجديد من روائع هذا الكتاب !

فما أكاد أعرف فى كل من عرفت من أدبائنا المعاصرين أوسع منه اطلاعا على الأدب العربى : شعراً ونثراً ، وقد كدت أقول : « والأدب الفرنسى » لولا فرط حرص على اصطناع الدقة ، وإسراف بالغ فى توخى القصد والاعتدال حتى لا يقال : ولكن من أحب الشىء حابى .

وهو — أعنى جمال الدين — لقوة حافظته وسعة محفوظه ، يكاد يستوعب الصفوة المختارة من طرائف الأدب العربى ، لاسيما كتاب الأغانى فهماً ودراية ، وحفظاً ورواية .

وربما ذكرت له الطرفة المستملحة الغريبة فإذا به — لتثبته من حفظها وروايتها — أسبق من قارئها إلى تلاوتها .

* * *

فتحت كتاب الأغانى — أيها السادة — لأقرأ — لصديق جمال — أول ما تقع عليه عيناى .

فإذا بيتان من شعر قيس : شاعر الحب الخالد يتألقان فى صفحة الكتاب كما يتألق القمر فى صفحة السماء ، ليلة البدر أو ليلة السواء .

واليكم البيتين أو على الأصح ، إليكم الدرتين :

« بكيت . نعم بكيت . وكل إلف إذا بانت أليفته بكاها
وما كان التباعد عن تقالٍ ولكن شقوةٌ بلغت مداها »

فترنح صاحبى جمال وترنحت ، وانتشى برحيق الفن وانتشيت .

ورحنا نردد البيتين مأخوذين بفنهما العادق وأسلوبهما الفاتن الذى يفيض سحراً وإبداعاً ، ويلهب وجداً والتياعاً

وقلت له فيما قلت : « ألا ترى فى قوله : « شقوة بلغت مداها » قصة الحياة كلها مجلوة على إيجازها فى ثلاثة ألفاظ ! ألا ترى فى هذه الألفاظ القليلة وجازة صادقة لمأساته الفاجعة فى لبنى ؟ ألا ترى كيف تألفت منها صورة كاملة يكاد القلب يذوب لها أسى ، وتغنى النفس حسرة على قائلها المبدع العظيم ؟ أليست مأساة قيس ولبنى — على الحقيقة — شقوة بلغت مداها ؟

وهنا دخل شاعرنا المحتفل به وقد سمع آخر الحوار فقال :

ما أصدق ما تقولان ! فان فى هذا الشطر وحده قصة كاملة تلخص مأساة قيس ولبناه ، وتكاد تلخص كل قصة من قصص الحياة!

ثم تلا البيتين فى تأثر وإعجاب فى صوت متهدج يكاد يجهش بالبكاء . وكأنما كان يقرأ فى ألفاظهما سطوراً من صحف الغيب :

« والنفس حالات تريها كأنها تشاهد فيها كل غيب ستشهد »

ودارت الأيام وألمت بشاعرنا المحبوب من الأحداث والخطوب : شقوة بلغت مداها .

فكأنما صهرت النار المتأججة منجما ذهبياً حافلا بأروع الكنوز ، فأخرجت منه ما فيه من النفائس الغالية سبائك من النضار خالصة من كل شائبة .

وكم ألمت الحوادث من مناجم نفسية أخرى فأحالتها رماداً تقذى بذراته العيون ، وتتقزز لمنظره النفوس .

أيها السادة : لقد أصاب أمثل القائل : « كل ما لم يقتلك فهو ينفعك » وصدق الكتاب الكريم « فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » لقد كانت شقوة بلغت مداها . فأحالها الفن العالى : نعمة بلغت مداها .

« والنحل يجنى المر من نور الربى فيعود شهداً فى طريق رضابه »

كامل كيلانى